

الفصل الرابع

منهج الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان

- ملامح الفكر التاريخي في الأندلس.
- منهج الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان .
- خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان .
- أسلوب الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان .

obeikandi.com

لم يتدع الأندلسيون طوقاً جديدة في التأريخ لبلادهم، وإنما اكتفوا بتقليد المشاركة في ذلك، فساروا على مناهجهم التي استمدوها من الكتب التاريخية التي اطلعوا عليها^(١)؛ وكان لشيوع ظاهرة احتكار أهل الحديث للكتابات التاريخية في العالم الإسلامي أن انسحبت بالضرورة على مؤرخي الأندلس^(٢)، فكان معظم المشتغلين في الأندلس - شأن نظرائهم في الشرق - محدثين دخلوا التاريخ من باب الحديث^(٣)، فعبد الملك بن حبيب السُّلَمي (١٧٤ - ٢٣٨ هـ / ٧٩٠ - ٨٥٢ م)^(٤)، كانت له رحلة إلى الحجاز ومصر وتأثر بالمحدثين والفقهاء في كتابة تاريخه، كما تتلمذ

(١) ومن هذه الكتب ما ذكره ابن حَيَّان عن بَقِيَّ بن مَخْلَد أنه أدخل كتاب " التاريخ " لـ خَلِيفَة بن خِيَاط في عشرة أجزاء، راجع، المقتبس (مكى)، ص ٢٤٦، وكذلك لاقت كتب ابن أبي خيثمة (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) وعبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) اهتماماً كبيراً من الأندلسيين ويعتبر قاسم بن أَصْبَغ من أشهر الأندلسيين الذين تلقوا العلم على ابن أبي خيثمة، للمزيد راجع، يوسف بنى ياسين: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ٥١.

(٢) أما من كانوا غير محدثين من مؤرخي الأندلس، - كابن القُوطِيَّة على سبيل المثال -، فقد غلفت كتاباتهم نزعة دينية واضحة وهذا يؤكد رؤية الدكتور محمود إسماعيل بوحدة الظواهر الثقافية. (٣) حتى لقد حكم أحد الدارسين بأن الكتابة التاريخية في الأندلس " بدأت في ظل أشبه أن يكون وصاية للفقهاء والمحدثين والقصاص المشاركة، وإذ شد عن هذه القاعدة محمد بن يونس الرَّاوِزِي (ت. ٢٤٩ هـ) ومحمد بن يوسف الوراق (ت. ٢٩٦ هـ)، حيث كان الأول تاجراً، والثاني وراقاً، فقد وفد الأول من الشرق والثاني من المغرب، مما يدل على صدق ما ذهب إليه الدكتور محمود إسماعيل من سيولة الظواهر الثقافية وتوحيدها في نائر أقاليم العالم الإسلامي. راجع: محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٤) هو عبد الملك بن حبيب السُّلَمي، كان بَالْبِيَرَة، وسكن قُرْبَة ويعد أول مؤرخي الأندلس، وله رحلة إلى المشرق، وكان عروضياً شاعراً حافظاً للأخبار والأنساب، راجع، ترجمته في: ابن القُرَظِي: تاريخ علماء الأندلس، ق ١، ص ٢٦٩: ٢٧٢ ترجمة ٨٦١، الحَمِيدِي: جذوة المقتبس، ص ٢٨٢ ترجمة ٦٢٨ الصَّيِّي: بغية الملتبس، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ترجمة ١٠٦٣، المقرئ: نفع، ج ٢، ص ٢١٨.

أحمد بن محمد الرّازي (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٦ م) على محدثين من قُرُطْبَة أمثال قاسم بن أَصْبَغ، وأحمد بن خالد^(١). وكذلك نجد الحوليات المشرقية قلدها الأندلسيون، وكتب التراجم من حيث اتباعهم منهج الطبقات أو ترتيبها على حروف المعجم^(٢).

وكانت بداية الكتابة التاريخية في الأندلس على يد عبد الملك بن حبيب - السالف الذكر -، الذي يعد أقدم مؤرخي الأندلس. وقد تأثر بالكتابات المشرقية، وخصوصا المصرية^(٣)، وفي كتابه " التاريخ "^(٤) التزم بمنهج التأريخ على السنين فيما يتعلق بالأحداث الواقعة في تاريخ الإسلام في المشرق حتى افتتاح الأندلس، والتزم بذكر تاريخ ومدة كل من ولاية وأمراء الأندلس وعلى الرغم من قدمه فإن قيمته التاريخية ضئيلة، وروايته لأخبار افتتاح الأندلس^(٥) تغطي عليها الأساطير^(٦)، واعتمد فيه على ما تناقل ذكره مؤرخو الأندلس من أحداث^(٧).

(١) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ في الأندلس، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٣) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٤) ويتناول الكتاب تاريخ العالم من ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها ثم تاريخ آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء والرسل حتى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم الخلفاء حتى يصل الى فتح الأندلس؛ فيفيض في ذكر شأنها وما فيها من الكنوز ذكراً لأساطير مختلفة عن الجان وأحوالهم، وفي هذا الكتاب يولى اهتماماً بنشر المذهب المالكي وأعلام المالكية في الأندلس. راجع: ابن حبيب: كتاب التاريخ، ط ١، ترجمة، تحقيق: سالم مصطفى البدرى، دار الكتب العلمية، 1999، والدراسة النقدية للدكتور عبد المحسن رمضان في مقدمة كتابه الحروب الصليبية في الأندلس، ص ٢٩.

(٥) راجع، التاريخ، ص ٨٤، ٦٣، ٧٨، ٨٣، ٩٣، ٩٩، ١١٠، ١١٤، ١٢٨.

(٦) بالينثيا: تاريخ الفكر، ص ١٩٥.

(٧) ولا زال الكتاب مخطوطاً، ومحمولاً في مكتبة البودليان بجامعة اكسفورد تحت رقم Marsh 288، ولم ينشر منه سوى القسم الخاص بالأندلس تحقيق الدكتور محمود مكى، الذى نشره بنصه العربى بعنوان: " باب استفتاح الأندلس " في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرى ١٩٥٧، المجلد الخامس، عدد ١ - ٢ الصفحات ٢٢١ - ٢٤٨، كملحق على مقال له بالأسبانية عن مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي. وقد قام الدكتور محمود على مكى بدراسة وافية لابن حبيب وكتابه، كما نشر الجزء الخاص بتاريخ الأندلس من هذا المخطوط كذلك قام المستشرق الإسباني خورخى أغوادى Jorge Aguade بدراسة هذا الكتاب وتحقيقه ونشره فى مديرى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - معهد التعاون مع العالم العربى، عام ١٩٩١ م وهو المشار اليه فى توثيق الدراسة، راجع، الدراسة النقدية للدكتور عبد المحسن رمضان فى مقدمة كتابه الحروب الصليبية فى الأندلس، ص ٢٩ - ٣٠.

وبدأت الكتابة التاريخية تتطور شيئاً فشيئاً بظهور عائلة الرّازي وهم على التوالي: محمد الرّازي (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م)^(١) صاحب كتاب "الرايات" - وكما يتضح من عنوانه - ينم عن نظرة ضيقة ومفهوم قاصر عن التاريخ، إلا أنه يشتمل على معلومات قيمة عن فتح الأندلس، وكيفية دخول موسي إلى البلاد، وفيه تفصيلات عن القبائل التي رافقته وتقسيم الأراضي، وكيفية التعامل مع السكان المحليين^(٢)، وجاء من بعد محمد الرّازي ابنه أحمد^(٣)، وله كتاب عن "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم"^(٤)، و"الاستيعاب في أنساب مشاهير الأندلس - في خمسة أسفار -"^(٥)، وقد ضاعت هذه الكتب كلها^(٦). ولكن معظم الروايات التاريخية التي جاءت في المصادر هي من كتابه "أخبار ملوك الأندلس" وأصبح منهجاً لمن أتى بعده، وعلى رأسهم ابن حَيّان القرطبي^(٧).

أما طريقته في كتابة التاريخ؛ فتقوم على وضع مقدمة جغرافية، ثم تناول الأمراء

(١) هو محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرّازي الكنان، أصله من الرى، وغلبت عليه وعلى أبنائه كنية الرّازي، وهى نسبة للرّى على غير القياس، راجع ترجمته في: المقتبس (تحقيق مكى، = الشطر الثاني) ص ٢٦٥ - ٢٦٩، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٥٤، معجم اللدان، ج ٤، ص ٣٢٥، التكملة ج ٢، ص ٦٧٠، الوافي، ج ٨، ص ١٣١، بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٨٥، نفح الطيب، ج ٣، ص ١١١.

(٢) يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣) وكنيته أبو بكر، وكان أديباً وخطيباً مفوهاً وشاعراً، وكان يلقب بالتاريخي؛ لكثرة اشتغاله بالتاريخ، و"غلب عليه حب الخبر والتتقى عنه" راجع في ترجمته: طبقات النحويين، ص ٣٢٧، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٥٥، بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٨٥، دائرة المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٤٤٨.

(٤) وكان موضوعه الرئيسى التاريخ للأندلس منذ الفتح الإسلامى في عام ٩٢ هـ - ٧١١ م حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجرى، راجع، الدراسة النقدية للدكتور عبد المحسن رمضان في مقدمة كتابه الحروب الصليبية في الأندلس، ص ٣١.

(٥) واعتمد عليه اللاحقون كابن حَيّان، وابن الأبار، محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٤١.

(٦) راجع، باليشيا، تاريخ الفكر، ص ١٩٧.

(٧) يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ١٦٤.

واحدا بعد الآخر، مهتما أثناء ذلك بترتيب الأحداث حسب السنين، يعرض أحداث كل سنة، في حكم الأمير ويختم السنة بعرض وفيات تلك السنة^(١).

أما عيسى بن أحمد الرازي (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)^(٢)؛ فيمثل آخر أفراد أسرة الرازي ممن عنوا بكتابة تاريخ بلادهم، ومن مؤلفاته كتاب التاريخ المسمى "الموعب"^(٣) لأنه استوعب فيه تاريخ الأندلس حتى عصره. وامتاز أسلوبه بالدقة المتناهية، وظهر ذلك بكيفية تناوله للأحداث في رواياته، فلديه اهتمام بالزمان في رواياته، وهو يأتي على ذكر تأريخ الحدث بالسنة والشهر واليوم ووقته في ذلك اليوم^(٤)، ولم يكن يؤرخ لإسبانيا الإسلامية وحسب؛ بل تناول كذلك تاريخ إسبانيا المسيحية وعلاقتها بالدولة الأموية، وتعرضه لأخبار العُدوة المغربية، ويؤكد ذلك ما نقله عنه ابن حيان في المقتبس^(٥).

وكانت كتابة التاريخ الأندلسي حتى ذلك الوقت ما زالت تحت الوصاية المصرية - على حد تعبير الدكتور محمود علي مكي -^(٦)؛ ثم سارت بعد ذلك في طريق النضوج، وارتفعت الوصاية المصرية، وظهرت مؤلفات بعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وعلمائها، ومن أمثلة ذلك: كتاب جذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتبس للزبي، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والذخيرة لابن بسام، وتاريخ علماء

(١) ولم يكتف بأن أرخ للجغرافية الطبيعية للأندلس؛ بل عمد إلى " القسم الأهم، وهو الجغرافية السياسية والبشرية؛ فقسم الأندلس إلى كور ومدن، ويلاحظ أن معظم أخبار الرازي عند ابن حيان فيما يتعلق بأخبار ما قبل سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م، يغلب عليها نقله إياها ب " قال الرازي " وفي مواطن أخرى " قال أحمد بن محمد الرازي " وما جاء عن عيسى فإنه يشير الى ذلك صراحة، راجع: المقتبس (شاليتا)، ص ١٦، ٢٤، ٥٤، ٦٩، ٨٢، ١٠١، ١١٢، ١٥٩، ٣٦٢، ٤١٠.

(٢) وكان عيسى " عالما بالأدب والتاريخ ذاكرة للأخبار "، الذيل والتكملة: ج ٥، ق ٢، ص ٤٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٣٢٩.

(٤) فيقول مثلاً عند تأريخه لسنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م: " ففتح الناصر لدين الله لقلعة ايوب، يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان ... عشى هذا النهار "، راجع، المقتبس (شاليتا): ص ٣٩٨، ومقتبس (مكي، الشطر الثاني، ص ٣٤٩، ٣٧٣).

(٥) المقتبس (شاليتا)، ص ٣٠٥، ٣١٢، ٤١٣.

(٦) محمود مكي، ندوة الجمعية التاريخية.

الأندلس^(١) لابن الفَرَضِي، وقوام منهج تراجم الرجال يقوم على الاختصار على الحديث عن الشخصية، وعدم إعطاء الأحداث السياسية أي اهتمام^(٢)، ومن خلال التأريخ لهم صَوَّر المؤرخون مدى كثافة الحركة الثقافية في الأندلس.

كما شهدت الكتابة في مجال "الطبقات" تطوراً ماثلاً، فلم تقتصر على الترجمة لأعلام المذاهب والفرق والفقهاء. وإنما اتجهت اتجاهها دنيوياً تمثل في الترجمة لمشاهير الأدباء والشعراء وأعلام الفكر على اختلاف هوياتهم المذهبية وانتماءاتهم السياسية^(٣)، وخير ما يعبر عن ذلك كله كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفَرَضِي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٣م)^(٤)، وقد بين في مقدمة الكتاب أن مؤلفه يضم عدداً كبيراً من فقهاء الأندلس وعلمائها، ورواتها، وأهل العناية بالعلم منهم مرتبين على حروف المعجم^(٥)؛ لذلك صدق من قال أن ابن الفَرَضِي يعد رائداً في هذا

(١) والمسمى تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس.

(٢) للمزيد راجع، إيمان محمود صالح: الكتابة التاريخية، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٣) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٧٧ - ٧٨.

(٤) وكان حافظاً عالماً كلفاً بالرواية، رحل في طلبها، وتبحر في المعارف بسببها، مع حظ وافر من الأدب كثير، واختصاص بنظم منه ونثر"، راجع، ابن خاقان: مطمح الأنفس. تحقيق مديحة الشرقاوى، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠١، ص ١٤٢.

(٥) وتضمن الكتاب ١٦٥١ سيرة ذاتية لأشخاص من مختلف مدن الأندلس ومناطقها، بدءاً من الفتح الإسلامي وحتى نهاية القرن العاشر وقد رتب المواد فيه هجائياً، وضمن كل حرف من الأحرف الهجائية حسب تواريخ وفاة - من الأقدم إلى الأحدث، ودون في الترجمة المعلومات الآتية: الاسم - محل الولادة - ومكان الإقامة - أستاذه - الحجة والأسفار بقصد الدراسة، وأسماء الأساتذة وعناوين المواد المدروسة). وما هي المواد التي رواها أو ما هي المؤلفات التي وضعها - تلاميذه - نوع عمله، والمنصب الذي يشغله - الشهرة العلمية - تاريخ الوفاة - وبشكل نادر تاريخ الولادة - الإحالة إلى المصادر، ووضع في المقدمة جدولاً بأسماء الكتاب الواردة باختصار، والذين وضعوا المؤلفات التي اقتبس منها استشاداته، وقد رتب مؤلفه حسب حروف الهجاء إذ بدأ بحرف الألف وانتهى بحرف الياء حسب الأبجدية الشرقية، حيث ذكر تحت كل حرف أسماء العلماء من أهل الأندلس مرتبين حسب الحرف الأول من الاسم فقط، ففي حرف الألف بدأ بإبراهيم وانتهى بأيوب وهكذا، وحينما ينتهي من ذكر الرجال في كل حرف يذكر الأفراد، والغرباء من الحرف المتقدم وهذا المنهج هو المعمول به عند الأندلس في تلك الفترة، راجع، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٨، ابن الأثير، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحسني، طبع القاهرة ١٩٥٥ م، أبو الوليد الباجي: التعديل والتجريح، ج ١، ص ٢٧٣، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ج ١ ق ١ ص ٩، بويكا: المصادر التاريخية، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

المجال بالأندلس، حيث طور الكتابة في "الطبقات" لتشمل سائر الفعاليات الثقافية والعلمية فضلاً عن الاهتمام بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي^(١). وفي هذا المجال صنف أيضاً محمد بن الحارث الحُشْنِي (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م)^(٢): كتاب "قُصَاة قُرْطُبَة"^(٣) الذي قال عنه المستشرق الأسباني بالثيا: "إن أخبار هذا الكتاب موضوعة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ"^(٤)، ورغم أن صاحبه لا يبدو رأيه في الأحداث، ولم يكن إلا ناقلاً للأخبار مسجلاً لها غير مدقق في تسجيله هذا وفي انتقائه للروايات الصحيحة منها، وكثيراً ما يستخدم ألفاظاً تشير إلى عدم الدقة مثل: حكى بعض الرواة الأخبار، وذكر بعض أهل العلم، أخبرني من أثق به^(٥)، إلا أن كتابه قُصَاة قُرْطُبَة احتوى على عديد من سلبيات ونقائص المجتمع الأندلسي.

وظهرت مؤلفات أخرى خاصة بـ "الأنساب"، مثل كتب محمد بن يوسف الوراق (ت 263 هـ / ٨٧٦ م) "البربر"، وألف عبد الله بن عبيد الأزدي (ت 241 هـ / ٨٥٥ م) كتاباً في الأنساب، بعنوان "أنساب الداخلين إلى الأندلس بين العرب وغيرهم"^(٦)، فضلاً عن كتاب "أعيان الموالى". أما كتاب أحمد الرازي "الاستيعاب" فلم يكن محض كتاب نسب؛ بل إنه جمع فيه بين دراسة الأنساب والتاريخ^(٧)، أما صاحب كتاب أخبار مجموعة؛ فبرغم كون كتابه في الفتوح أصلاً

(١) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) نشره خوليان ريبيرا لأول مرة في مدريد عام ١٩١٤ م، وترجمه إلى الإسبانية، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس. وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة من الوثائق المحفوظة في دار الخلافة، وسجلات القضاة، والأوراق الخاصة لبعض الأفراد.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٧٠.

(٥) راجع: مقدمة تحقيق كتاب قضاة قُرْطُبَة، رقم ط، ي.

(٦) أهدها إلى الخليفة الناصر.

(٧) وهو على غرار كتاب أنساب الأشراف للبلاذري فنجد الرازي يقدم إضافة إلى سلسلة النسب أخباراً عن المترجم له، غنية بالمعلومات التاريخية عن أسرته ومكانتها وتاريخ دخولها للأندلس، وأصلها، بحيث يقدم صورة متكاملة للشخص المترجم له، راجع يوسف بنى ياسين: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ١٦٥.

فإنه وجه اهتماماً للعصبية العربية في الأندلس وللقرشيين والبيت الأموي على وجه الخصوص، وكذلك كتاب "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم، و "الإنباه على قبائل الرواة" لابن عبد البر، أما ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م)^(١)؛ فقد كتب بميل واضح للعناصر القوطية.

وتعكس تلك الكتابات واقع الصراع العنصري الذي عم الأندلس منذ الفتح وحتى عصر الإمارة^(٢). وقد اهتم بعض مؤرخي الأنساب بتوضيح المنهج المتبع من أمثال ابن حزم في الجمهرة^(٣) وهناك من تحرر من الإسناد ومنهم من التزم به.

كما ظهرت مؤلفات في الجغرافيا التاريخية؛ فقد كانت كتابات مؤرخي الأندلس عموماً باستهلاكها بمباحث جغرافية، حتى صار ذلك قاعدة تُتخذ، حيث يتعرضون "لممالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة"^(٤). وسارت الكتابة في هذا المجال تسير على وتيرة واحدة وهو: تنسيق المادة وعرضها وتقسيم الكتاب إلى فصول؛ كل فصل يتحدث عن بلد معينة محدد موقعها الجغرافي ويقسمها إلى عدد من المدن ويتحدث عن كل مدينة على حدة^(٥) ومن أمثلة هذا المنهج كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك^(٦) للبكري و " ترصيع

(١) وكان ذو ثقافة واسعة، متبحراً في التاريخ، جيد الشعر، صحيح الألفاظ، عالماً بالنحو حافظاً للغة يملئ ذلك عن ظهر قلب؛ فكان على حد قول الذهبي "أخبارياً بارعاً حافظاً لأخبار الأندلس ملياً برواية سير أمرائها، وأحوال فقهاء وشعرائها، راجع، راجع، خوليان ربيير: تاريخ افتتاح الأندلس (مقال ضمن كتاب دراسات أندلسية، الطاهر مكي، ص ٣٢)، ابن القزويني: تاريخ علماء الأندلس العلماء والرواة للعلم بالأندلس. ج ٢ غنى بنشره، السيد عزت العطار، ط ٢، مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٨٨ م ص ٧٩، ترجمة رقم ١٣١٨، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٢٢٠.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) نفسه، ص ٦.

(٤) نفسه، ص ٤٣.

(٥) إيمان صالح: الكتابة التاريخية، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٦) وقد حفظ فيه الكثير مما تضمنه تاريخ محمد بن يوسف الوراق - المفقود - والريق القزويني، المفقود معظمه أيضاً فقدم لنا أيضاً نصاً في غاية الأهمية عن تاريخ المغرب خصوصاً وتاريخ الأندلس بوجه عام. وإذا ما علمنا أن البكري اشتغل بالسياسة وصنف في الطلب والفقه والفلاح. أدركنا قيمة معلوماته وجدة إبداعه ومافعله البكري بخصوص جغرافيا المغرب.

الأخبار" ^(١) للعدري، وفيه كان يعرض لسكان الأقاليم موضعاً أصولهم وأنسابهم وتوقيت استيطانهم الأندلس وأنماط حياتهم وسجايهم ومثالبهم. هذا فضلاً عن موضوعات ذات طابع سياسي - اجتماعي كحركات الصعاليك بالأندلس. وأخرى ذات مسحة اقتصادية لها تأثير سياسي كالأوبئة والمجاعات. هذا فضلاً عن معلومات جغرافية وتاريخ الشرق الإسلامي عاينها أثناء تجواله لذلك أثنى عليه الدارسون المحدثون وقرظوا انجازاته التي تميز الجغرافيا بالتاريخ ^(٢).

وشهد العصر أيضاً ظاهرة الكتابة التاريخية التي تدخل في باب " المذكرات الخاصة "، وكان موضوع الكتاب هو الذي يحدد المنهج المتبع مثل طوق الحماة لابن حزم، الذي حظي بشهرة عالمية، واهتم به المستشرقون شرقاً وغرباً واعتبروه " سيرة ذاتية " جمع فيها بين الفكرة الفلسفية والواقع التاريخي، وهناك أيضاً كتاب " التبيان " ^(٣)، لأmir غرناطة عبد الله بن بلقين (ت ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) وسرد فيه تاريخ إباطه وأحوال حكمه وحوادث الأندلس في عصره ويعد الكتاب وثيقة هامة كشهادة احد أمراء ملوك الطوائف على عصره ^(٤)، وبين الأمير المنهج المتبع بقوله أنه سيقوم " بذكر جمل من أحوال الأندلس، الحادثة فيها، المشهور خبرها، وتركنا وصف الاختلافات؛ إذ يوجد الحق في طرف واحد... وذكرنا ما ينقاس في العقل وحذفنا منه الإكثار والمشتبهات " ^(٥).

كما انصب اهتمام مؤرخي الأندلس على الكتابة في الفتح الإسلامي للأندلس إذ ألف معارك بن مروان - من أحفاد موسى بن نصير - تاريخاً في الفتوح ابرز فيه دور جده في فتح الأندلس. وما كتبه المؤرخ المجهول وابن القوطية في نفس الموضوع

(١) اسمه الكامل " ترصيع الأخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك " وكان معظم معلوماته التاريخية مأخوذة من اسره الـ الرازي المفقوده توارى عنهم، فضلاً عن مشاهداته ومعايناته بالنسبة لاحداث عصره، لذلك امدنا بمعلومات تاريخيه هامة جدا وفريده احيانا، عن علاقات حكام قُوطية بدول المغرب وكذا عن الجغرافيا البشريه للأندلس.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣) الذي الفه حين اقامته في منفاه باغمات.

(٤) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) عبد الله بن بلقين: التبيان، تحقيق، أمين توفيق الطيبي، عكاظ، الرباط ١٩٩٥ م، ص ١٠٧.

فكان لابن القُوطِيَّة كتاب " تاريخ افتتاح الأندلس "، وتناول فيه ما يزيد على القرنين من التاريخ الأندلسي مبتدئاً بمقدمة تاريخية حول أسرة غيطشة، ودخول العرب إلى الأندلس حتى عهد الخليفة الناصر، متتبعا في تناوله للموضوعات عهود الأمراء والحكام غير مكترث بالتسلسل الزمني^(١)، وتنوعت هذه المعلومات على قلتها فقدمت لنا أخباراً عن طبقات المجتمع الأندلسي المختلفة سواء العرب أم الأسبان أم غيرهم^(٢)، وقد اتسم أسلوبه بالانتقائية والإيجاز وقد يعتذر عن ذكر بعض الحوادث التي لا يحسن برأيه ذكرها^(٣).

ثم حدث تطور في موضوعات علم التاريخ ومن أهم هذه المظاهر كتابة بعضهم "تواريخ عالمية" فبداية كان كتاب التاريخ لابن حبيب برغم الطابع الأسطوري الذي غلف الكثير من المعلومات الواردة فيه، ورغم الخلط بين موضوعات لا تربطها صلة؛ فالقيمة الحقيقية للكتاب تكمن في كونه المحاولة الأولى لكتابة "تاريخ عالمي" في الغرب الإسلامي^(٤)، ثم قام عُرَيْب بن سعد باختصار تاريخ الطبري ثم ذيل عليه وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس التي لم يذكر الطبري عنها شيئاً البتة.

كما صنف أبو بكر بن سعيد بن أبي الفياض (ت. ٤٥٩هـ / ١٠٦٦ م) كتاب "العبر". وهو تاريخ عالمي، مفقود، لا نقف له على أثر إلا بعض النصوص في الكتب التاريخية اللاحقة، خصوصاً عند ابن عذارى المراكشي. كما طرق ابن خَزْم ميدان الملل والنحل في الكتابة التاريخية، حيث صنف كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"^(٥).

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٨٣، ١٢٤.

(٢) يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٤١.

(٣) راجع، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٥٤، ٩٩، ١٠١.

(٤) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٥) والكتاب يعد أول كتاب أندلسي في هذا الحقل المعرفي. ويتسم بطابع الثراء في المعلومات والمقارنة والنقد، وفيه إبراز ابن خزم اثر الموروث الكلاسيكي في فكر الفرق الإسلامية، بنزعة فلسفية كلامية تقدم الأساس الفكري النظري للفرق الكلامية مع تبيان أخبار عن تاريخها السياسي، فضلاً عن تضمينها حصاد مساجلاته مناظراته والمتكلمة وأرباب الفرق، كما تضمن الكتاب نقاشاً مع مفكري

على أن جل الاهتمام انصب على " التواريخ المحلية " ^(١)، وعلى غرار كتب التاريخ المحلي، أولى المؤرخون الأندلسيون اهتماماً لدراسة جغرافية الأندلس وتاريخها في مساحة محلية تغنى بالمآثر والفضائل والمناقب الخاصة بالإقليم وأهله، فكتاب ابن حبيب تحدث فيه عن جغرافية الأندلس وتاريخها حتى عصره رغم كونه تاريخاً عالمياً. أما أحمد بن محمد الرّازي فقد كتب في وضوح وتحديد عن أخبار ملوك الأندلس وخدمهم وغزواتهم ونكباتهم، فضلاً عن مختصر تناول فيه تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد حكم المستنصر، إضافة إلى كتاب عن صفة قُرْبَة تحدث فيه عن طبوغرافيتها وخططها ومنازل أشرافها. كما كتب ابن عيسى عن تاريخ الأندلس إلى عهد الخليفة هشام المؤيد. كما تضمن كتاب أخبار مجموعة عرضاً تاريخياً لوقائع التاريخ الأندلسي من الفتح حتى خلافة الناصر ^(٢)، ولاقت سائر المدن الأندلسية اهتماماً كبيراً من المؤرخين نتيجة إتباع نظام الإدارة اللامركزي ^(٣).

وبذلك كان من البديهي أن تشم رياح التطور بلاد الأندلس، وبديهي أيضاً أن يزدهر الفكر التاريخي في الأندلس موضوعاً ومنهجاً، تحقيقاً وتفسيراً، بحيث أسهم كبار مؤرخيه في ترسيخ العلم ليحتل مكانة مرموقة بين العلوم الأخرى ^(٤).

اليونان على أساس الحجة والبرهان. وعالج ابن حزم موضوعات جغرافية كحديث عن كروية الأرض، بالإضافة إلى دروس في الأخلاق كما افرد مباحث في علم الكلام وقضاياها. ويحتوي الكتاب على تاريخ الأنبياء، النخ، وتاريخ صدر الإسلام ومشكلة الإمامة. واختتم الكتابة بدراسة نقدية عن الفلك والتنجيم ونقد الاعتقاد في المعجزات والسحر وأخرى تتعلق بقضايا فلسفية بحث، كالجوهر والعرض والنفس والجسد - النخ. ولذلك كله، يعد الكتاب نموذجاً فريداً في مجال الملل والنحل ودليلاً، لا يرقى إلى إلية الشك، على موسوعة ثقافة ابن حزم. وفي مجال الكتابة التاريخية أيضاً (محمود إسماعيل: الفكر التاريخي في الغرب، ص ١٠٠).

(١) وهي ظاهرة عكست في الأندلس استقلالاً منذ وقت مبكر على يد عبد الرحمن بن معاوية الذي أعلن استقلاله عن الخلافة العباسية عام ١38 هـ، راجع، محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، ص ٤٣.

(٣) راجع، يوسف بنى ياسين: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٤) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٥.

منهج الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان.

بصورة عامة يمكن القول أن عصر ملوك الطوائف شهد تطوراً ملحوظاً في تدوين المادة التاريخية؛ فتنوعت أصناف الكتابة وتعددت الموضوعات؛ لذا كان من البديهي أن تتنوع مناهج المؤرخين التي طبقوها في دراسة التاريخ وكان لكل مؤرخ طريقته في التأريخ، وأسلوب يكاد يلزمه في كل ما يكتبه^(١).

وقد جمع ابن حَيَّان بين المنهجين الحولي والموضوعي؛ فبالنسبة للمنهج الحولي: وجدناه في المقتبس والتمتين قد نظم الأحداث حسب الأيام والشهور والسنين، ويبدو أن الكم الهائل من الوقائع والأحداث لم يُتَح له فرصة الانعتاق من اعتماد التأريخ الحولي^(٢)، وقد اتبع مناهج المحدثين من حيث الالتزام بالإسناد - دون إفراط -؛ ففي تأريخه لكل حدث كان يسبقه بذكر مصدره، وفي هذا الصدد اعتمد على كتابات ابن عبد البر، ومحمد بن وضاح، وابن القُوطِيَّة، وآل الرَّازي، كما استقصى بعض الأخبار من أفراد البيت الأموي الحاكم، فضلاً عن مؤرخين أمويين سابقين كمعاوية ابن هشام الشيبينسي، ومعاصرين كالحسن بن مفرج، وابن الفَرَضِي الخ^(٣).

ويستهل ابن حَيَّان أخبار كل سنة بأهم الأحداث التي جرت خلالها، غزوات وحروب وأخبار الخارجين على الإمارة، وما حدث فيها من تغيرات في الوظائف سواء بالولاية أو العزل أو الوفاة؛ فعلى سبيل المثال يبدأ أحداث سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م بقوله: " فيها غزا بالصائفة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغِيث إلى دار الحرب، وهي الغزوة المعروفة بالقلاع"^(٤)، وأحداث سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م بقوله: " فيها ظهر بهلول بن أبي الحجاج بناحية الثغر الأعلى، ودخل مدينة سَرَقُسطة

(١) فمنهج الكتابة هي جزء من شخصية المؤلف التي لا ينسلخ عنها وفي الغالب تعبر عن شخصيته وآراءه في المجتمع الذي يؤرخ له.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) نفسه، ص ١٠٠.

(٤) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الأول)، ص ١٠٣.

فملكها، وانضم إليه عبدالكريم وعبد الملك ابنا عبدالواحد بن مُغيث ^(١)، وأحداث سنة سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م بقوله: " وفي سنة أربع وثمانين ومائة، دخل عبدالله بن الأمير عبد الرحمن المعروف بالبلنسى مدينة وَشَقَّة، من الثغر الأعلى على المُصافين له من بنى سلمة العرب، فصار فيها وطمع بملكها ^(٢). ثم يتقي بعد ذلك بعض الحوادث المشهورة خلال السنة المؤرخ لها، ويجعل لها عنواناً منفصلاً عنها فعلى سبيل المثال في أحداث سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م، يختار بعض الموضوعات ويفرد لها عنواناً خاصاً مثل: " ذكر الوقعة العظمى بأهل قُرْطُبة المعروفة بوقعة الرَبَض ^(٣)، و " خبر الفقيه طالوت ^(٤).

ويهتم في سرده بذكر الكوارث الطبيعية والمجاعات موضحاً تأثيرها في البلاد فيقول عند تأريخه لأحداث سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م: " وفيها كان القحط الذي عم الأندلس، فهلكت المواشي واحترقت الكروم، وكثر الجراد؛ فزاد في المجاعة وضيق المعيشة ^(٥). كما اهتم بالظواهر الجغرافية ويسجلها من أمطار وعواصف وزلازل الخ ومن الأمثلة على ذلك: عند تأريخه حوادث لسنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م يقول: " وفي يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر تزلزلت الأرض في أول الساعة الرابعة منه وسكنت بسرعة ^(٦) ثم يقول: " وفي يوم الخميس لليلة بقيت من صفر نزل بَقْرُطبة وما يليها غيث وابل، اتصل من سحر ليلته الى عشي النهار... وهاجت فيها رياح شداد، وهاجت ليلة الخميس بعده رياح نكباء شديدة الهبوب ^(٧).

ويستمر في ذكر الأحداث المهمة خلال السنة، وفي حال ما إذا استمرت الحادثة التاريخية لسنة تالية فإن ابن حَيَّان كان يستكمل الحدث ولا يقطعه، بغض النظر عن

(١) نفسه، ص ١٠٥.

(٢) نفسه، ص ١١٦.

(٣) نفسه، ص ١٤٠.

(٤) نفسه، ص ١٦٦.

(٥) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١.

(٦) المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ٦٧.

(٧) نفسه، ص ٦٧.

التقسيم الزمني الذي يرى فيه - في ذلك الوقت - قطعاً لوحدة الموضوع الذي يتناوله؛ فعلى سبيل المثال في أحداث سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م ذكر خبر " تولية الأمير الحكم لعمروس بن يوسف على طليطلة أبان خروجهم على طاعة الحكم " ولا يكتفي بهذا الخبر، بل يستطرد في حديثه ويشرح تفاصيل تولي عمروس وعلاقته بأهلها، وكيف نجح في إعمال الحيلة للإيقاع حتى يصل إلى أحداث سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م، ويتحدث عن وقعة الحفرة^(١)، وتأثير هذه الواقعة في أهل طليطلة أن استكانوا للطاعة أيام الأمير الحكم وولده عبد الرحمن، ثم يعرض بإيجاز لتاريخ أهل طليطلة في الخروج على الأمراء الأمويين حتى يصل بتاريخهم إلى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ قائلاً: " فلما هلك عبد الرحمن وولى مكانه ابنه محمد عاجلوه بالخلع، وتهافتوا على الحرب؛ فنشروا فتنتهم، وعادوا الى أسوأ أعمالهم، وطالت مدة الخلاف بهم، فما استقامت لهم طاعة صادقة إلى أن صارت الخلافة إلى عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله "^(٢).

وفي حالة ذكر الحدث أكثر من مرة ينبه ابن حيان القارئ لذلك بقوله " وقد تقدم ذكر ذلك في باب فغنينا عن إعادته "^(٣)، و " قد مضى ذكر ذلك "^(٤)، و " على ما قد ذكرنا "^(٥). وفي حالة استطراده في ذكر الحدث ومتابعته على مر السنين حتى لا ينقطع تسلسل الأحداث؛ ينبه القارئ عند انتهائه رجوعه مرة أخرى لمتابعة الأحداث على نسق السنين مشيراً الى ذلك بقوله: " رجع الحديث "^(٦)، و " رجع الخبر "^(٧)، ويقوم بربط الأحداث، والأخبار بعبارات مألوفة في تاريخه مثل: " وفيها

(١) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٠٨.

(٢) نفسه، ص ١١٥.

(٣) نفسه، ص ١١٥.

(٤) نفسه، ص ١١٦.

(٥) نفسه، ص ١٣٠.

(٦) المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ٣٨ - ٣٩.

(٧) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٩٦.

ظهر...^(١)، " فلما قرأ كتابه...^(٢)، فأما المغيرة بن هشام...^(٣)، " فلما انقضت الأيام الثلاثة...^(٤) الخ. ويوضح الأحداث بقوله " لما استوثق الأمر...^(٥) " وقد افشيننا في شرح...^(٦)، و "وأختتم هذه الأخبار...^(٧)، " فلما كان عقب جمادى الأولى...^(٨).

أما بالنسبة للمنهج الموضوعي؛ فإننا نجد ذلك واضحاً في كتابيه المقتبس والمئين؛ ففي المقتبس يقسم كتابه إلى عدد من الموضوعات، كل منها مرتبط بعصر الأمير الذي يتحدث عنه، حيث يتخذ من عصور الأمراء أساساً للتقسيم؛ فيبدأ بعرض الأحداث المحيطة بتولي الأمير؛ فعندما أرخ لعصر الأمير عبد الرحمن الأوسط شرح كيف اعتنى والده بتربيته وتعليمه، ومتى اختاره ولياً للعهد وكيف تولى المسؤولية أثناء مرض والده؛ ثم وفاة والده ومبايعته أميراً^(٩)، ثم يعقب ذلك أحكام عامة على شخصيته وسيرته وأخلاقه وقيمة عمله فيقول عن الأمير : " هو أول من فخم الملك بالأندلس من خلفاء بني مروان... واستوزر الأكفاء من أهل الاكتفاء"^(١٠) ثم يعرض لبعض الأعمال المعمارية في عهده^(١١)؛ ثم يذكر نوابه على كافة الوظائف التابعة للدولة مثل " ولاية السوق"^(١٢)، و " السكة والطرارز"^(١٣) و " الخزانة

(١) نفسه، ص ١٠٥.

(٢) نفسه، ص ١٠٧.

(٣) نفسه، ص ١٤٩.

(٤) نفسه، ص ١٥١.

(٥) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٣٩.

(٦) نفسه، ج ٣، ص ١٢١.

(٧) نفسه، ج ٣، ص ١٢٠.

(٨) نفسه، ج ٣، ص ١٢٢.

(٩) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٢٧٥ - ٢٨٠.

(١٠) نفسه، ص ٢٨٠.

(١١) نفسه، ص ٢٨١ - ٢٨٨.

(١٢) نفسه، ص ٢٨٨.

(١٣) نفسه، ص ٢٩٠.

والوزارة والحجابه" (٢)، ويفرد بعد ذلك فصلاً عن أخبار العلم والعلماء (٣)،
موضحاً أهم معالم الحياة الثقافية خلال العصر (٤)، ويترجم لأعلام الأدباء
والعلماء (٥)، ويختتم حديثه ببعض الأحداث الكبرى والنوادر المختلفة في عهد
الأمير (٦)، وفي الختام يعرض للوفيات في عصر ذلك الأمير، مرتباً إياهم ترتيباً زمنياً،
وقد شملت هذه التراجم طائفة كبيرة من رجال الدولة هذا بالإضافة إلى العلماء
والفقهاء واهتم أثناء ترجمته لهم بذكر أسمائهم ونسبهم وكناهم وتواريخ ميلادهم
وفاتهم والعلوم التي قاموا بتحصيلها والوظائف التي تقلدوها.

ومن سمات منهج الكتابة التاريخية لديه أيضاً أنه كان في بعض الحالات يفضل
رواية على أخرى خاصة إذا كان ملماً بجوانبها المختلفة؛ فنجد مثلاً يرجح رواية ابن
القُوطِيَّة عند كلامه عن "ذكر مهلك نصر الخَصِّي الكبير سنة ٢٣٦ هـ" فيقول: "
وكرر القول في السبب الذي أَرادَه والخوض فيما أتاه، وكان أوضح ذلك ما ذكره أبو
بكر بن القُوطِيَّة" (٧).

ومع ذلك نجده أحياناً يورد للحدث الواحد أكثر من رواية فنجده يستخدم
عبارات مثل: "ذكر شرح هذه القصة من طُرُق" (٨)، فمثلاً عند التعرض لشرح محنة
أهل طُلَيْطَلَة رجع إلى رواية عيسى الرَّاَزي (٩)، والحسن بن مفرج (١٠)، وابن
القُوطِيَّة (١١)، وعبد الملك بن حبيب (١٢).

(١) نفسه، ص ٢٨٨ - ٢٩٨.

(٢) نفسه، ص ٢٩٨.

(٣) نفسه، ص ٣٠٧ - ٣٣٥.

(٤) نفسه، ص ٣٣٦ - ٣٥٠.

(٥) نفسه، ص ٣٨٩، ٤٠٣.

(٦) نفسه، ص ٨.

(٧) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٢٣.

(٨) نفسه، ص ١٠٦.

(٩) نفسه، ص ١٠٧.

(١٠) نفسه، ص ١١٣.

(١١) نفسه، ص ١٢٤.

ولم يكن يرجح رواية على أخرى تاركاً الأمر للقارئ. ونراه مرة أخرى ينتقي ما يدون متخيراً أبرز الأحداث فيقول مثلاً عن القاضي عباد: "ومن أشهر أخباره أنه نظر في شأن من بقي من فتیان بني مروان يومئذ فسقط إليه خبر الدعي المشبه بهشام بن الحكم، وكان قد تحدث أنه أفلت من ידי سليمان قاهره، وإنه غاب ببلاد المشرق..."^(١). وعند ذكرهبيعة الأمير الحكم لابنيه يرجع إلى روايات معاوية بن هشام^(٢)، وأحمد الرازي^(٣)، وأبو بكر بن القُوطِيَّة^(٤)، والفقيه محمد بن وضاح^(٥)، وفي ذكر خبر ابن بشير القاضي أي برواية ابن القُوطِيَّة^(٦) والحُسَيْنِي^(٧)، وأحمد بن خالد^(٨)، ومحمد بن وضاح^(٩)، وخالد بن سعد^(١٠).

وأما منهجه في المتين فهو التأريخ لدول الطوائف المتنازعة المتفرقة، فنراه يفرد لكل دولة منها فصلاً خاصاً بها، يحدث عن نشأتها وعن أحداثها مرتبة زمنياً مع التعرض لشرح أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعلاقتها بغيرها من الدول مع الترجمة لعلمائها وفقهائها وقضاتها وكتابه وشعرائها.

وكان في المتين لا يحتاج إلى إيراد عدة روايات للخبر، أو اثبات مصدر لأخبار ووقائع هي منه بمرأى ومسمع؛ إذن هو مصدر لتاريخ عصره وبلده، ما شاهده منه وما بلغه أو سمعه، كالذي نقل ابن بَسَّام من خطه في مقتل "الوزير ابن القطاع، عيسى بن سعيد"، وقد أعظم الناس قتله وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٢، ص ٦.

(٢) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٨١.

(٣) نفسه، ص ١٨٢.

(٤) نفسه، ص ١٨٣.

(٥) نفسه، ص ١٨٣.

(٦) نفسه، ص ٢٠١.

(٧) نفسه، ص ٢٠٤.

(٨) نفسه، ص ٢٠٤.

(٩) نفسه، ص ٢٠٦.

(١٠) نفسه، ص ٢٠٦.

ينظرون إلى رأسه معلقاً بياها، قال ابن حَيَّان: " وكنت في جملة من نظر إليه، واستبنت الضربة بخذه الأيمن ^(١) ". وفيه حقق أيضاً تحرير الكتابة التاريخية من قالب إطارها التقليدي، يتضح ذلك في قدرته على الحصول على المعلومات من مصادرها الأصلية، واستطاع أن يحلل ويعلل الكثير منها وبموضوعية واضحة ^(٢)؛ إضافة إلى ذلك، كان ملماً بشئون الإدارة وأساليب الحرب، مما يسر له وصف الأحداث بدقة، والحكم على التصرفات والسياسات بل ونقدها ^(٣). ولذا يقول الدكتور محمود إسماعيل: " وفي تلك المرحلة انعتق علم التاريخ من إسار المصادر اللاهوتية باندثار دور " المؤرخ - المحدث " وإفساح المجال للمؤرخ الفقيه والتاجر والوراق والكاتب والطبيب والفيلسوف، الأمر الذي أفضى إلي تحويل العلم من " الرواية " إلى " الدراية " ^(٤).

وكان يلتزم بمبدأ تتبع الأحداث؛ بحيث تظهر مترابطة في سياق متصل حتى يتلافى أهم عيوب الحوليات قدر المستطاع؛ وهو تقطيع أوصال الخبر ^(٥). كما كان يميل إلى التحليل والتعليل بالتقول فيما كان يعرض من أخبار ^(٦). ونراه يسرد تلك الواقعة ومع السرد يحلل ويعلل: " وأول ما ظهر من تفساد عباد والمُظَفَّر أن ابن يَحْيَى صاحب لبلة عند هجوم عباد عليه استجار بالمُظَفَّر بن الأَفْطَس، فأجاره وانزعج له، ووصل يده وعطل ثغره، وجمع جيشه وأقبل إلى لبلة ناصراً لابن يَحْيَى، مضيقاً لمن خلفه يوقد نار فتنة كان في غنى عنها، حتى نزل بنفسه على ابن يَحْيَى ودافع ابن عَبَّاد عنه، وحرك في ذلك في حلفائه البرابرة جماعة، فسارعوا إليه غير ناظرين في عاقبة أمرهم، وتقدموا في تحريك يعسوبهم محمد بن القاسم فانظم به أمرهم، وتقدم بهم

(١) الذخيرة: (تحقيق البديري)، ج ١، ص ٧٨، نقلاً عن ابن حَيَّان.

(٢) وهو ما سنعرض له عند الحديث عن الموضوعية.

(٣) وهو ما سنعرض له عند الحديث عن النقد عند ابن حَيَّان.

(٤) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٤.

(٥) نبيلة حسن: في الوثائق، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٦) الشكعة: المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

إلى إشبيلية ورحاهم تدور على قريعهم باديس بن حَبُوس، مدرهم في الجلى ومفرعهم في النائية، يسلمون لرأيه ويزحون بركنه، فأشفق الوزير ابن جَهْور من حركتهم ولكن على عادته في التقلقل لأمثالها، وجهد جهده في صرفهم، وأرسل ثقات رسله إلى عامتهم، إلا ما كان من الدائلين منهم عباد داعية الروانية ومحمد بن إدريس صاحب مَالَقَة^(١) دائل الحُمُودية، فإنه تنكبها بعاداً من الظنة، إذ كان هو وجماعة قُرْطُبَة متوقفين على كل دعوة، فلما وصلت رسله إليهم ما زادهم إلا لجاجاً^(٢).

ونراه يسرد ما شجر بين المتوكل وأخيه ابني المظفر ابن الأفطس ومع السرد يحلل ويعلل: "في صدر سنة إحدى وستين، نشأ من تلقاء ثغر غربي الأندلس المثغور عارض هم ضاعف الإشفاق، وأكد التوقع بانكشاف خبر الاختلاف الواقع بين أميريه: يَحْيَى وعمر ابني المظفر بن الأفطس، واهتدى الطاغية أذفوش بن فردلند المتمرس بجماعة ملوك الطوائف بالأندلس، إلى شب نار الفتنة بينهما كيادا للمسلمين، فبدأ بالاعتلال على يَحْيَى صاحب بَطْلَيْوس منها، يسومه الزيادة في مال جزيته التي كان فارق أباه الهالك عليها بوساطة المأمون بن ذي النون بينهما، فانتقض على هذا الغلام لوهي في جبلته، وطماعية في إتيانه من قبل أخيه، فأظهر له يَحْيَى المعجز عن الزيادة في الجزية، فجرت بينه وبينه الطاغية في ذلك خطوب اغتدى بها بلد بَطْلَيْوس وثمره ثغورا، فأقام يَحْيَى منها على ولاية المأمون بن ذي النون وحلفه وراثته عن أبيه النظفر، ومال أخوه عمر إلى المعتضد، وتأتت بين هذين الأخوين في

(١) مَالَقَة Malaga: بفتح اللام والقاف كلمة عجمية. مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وألمرية. قال الحُمَيْدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشدونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها أي الرستاق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم. منهم عزيز بن محمد اللخمي المالقي وسليمان المعافري المالقي.

راجع: ياقوت: معجم، ج ٥، ص ٤٣، أبو بكر الزهري: كتاب الجغرافية، ص ٩٣.

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٢، ص ١٦ - ١٧.

أثناء ذلك هدنة على دخن، لم يتم معها أنس ولا تمكنت لهما طمأنينة، وما زالت السعاية تقلدح بينهما العداوة، حتى أورت نار فتنة ضمرت البلاد، وأجاحت الرعية، وثلمت ثغرها وضاعفت البلية"^(١).

وتتميز كتاباته التاريخية بالدقة البالغة حتى في تحديد التواريخ بالأيام، وبالتقويمين الهجري والميلادي في بعض الأحيان؛ على سبيل المثال عند تأريخه لأحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين يقول: " وفيها سيلان عظيمان بنهر قُرْطُبة في شهر رجب القمري الموافق لشهر ينير الشمسي "^(٢)، وفي افتتاح سنة إحدى وستين وثلاثمائة يقول: " أول المحرم فاتحتها يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من أكتوبر الشمسي "^(٣). وعند تأريخه حوادث لسنة ٣٦١ هـ يقول: " وفي يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الآخرة منها نزل بقُرْطُبة غيث وابل ودخل شهر أبريل العجمي فجاء الحضرة رعد شديد وأنواء مكفهرة "^(٤)، وهو دقيق في كل ذلك ^(٥)، ونجد دقته كذلك في تحديد مدة الإمارة بالسنة والشهر واليوم فنجده محددًا مدة إمارة الأمير عبد الرحمن بن الحكم " وكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام "^(٦) !!.

وتتميز دقته كذلك في دراسة الروايات التاريخية والمفاضلة بينها على أساس منطقي مع تخليصها من الأساطير والخرافات، ومع التفصيل الواسع الذي لا يترك شيئًا ذا قيمة، وذكر الحوادث والنظائر التاريخية المشابهة في المشرق، وشرح العلاقات بين الأندلس وبين الشمال الإفريقي ^(٧).

(١) نفسه، ج ٢، ص ٣٨٣، نقلا عن ابن خيَّان.

(٢) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٥.

(٣) المقتبس (تحقيق الحجى)، ٣٨.

(٤) راجع، المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ٧٢-٧٣، ١٤٤-١٤٥، ١٥٤، ٢٠٩.

(٥) راجع جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، للعلامة ويستفيلد، ترجمة عبد المنعم ماجد، وعبد المحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٨٠ م، ص ٢٩.

(٦) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٦٦.

(٧) تم التعرض لها بالتفصيل في فصل المحتوى.

وكان ابن حَيَّان يتمتع بروح نقدية عالية، ويشير إلى عيوب الناس ويرصدها في تاريخه. كما كان يستمد أحكامه الناقدة من معرفة واسعة بتاريخ المسلمين في المشرق والمغرب مما يتيح لنا أن نصفه بالموسوعية، فكتابه تتسع لآفاق متعددة في عمل تاريخي متميز، وفضلاً عن هذا التفصيل والتوسع فإنه في إحاطته الشاملة بالتاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب، كان سريع الإدراك والتنبه للمشابهات والمفارقات بين المشرق والأندلس. نرى ذلك في مقارناته الدقيقة بين أحداث الأندلس وما ماثلها أو خالفها مما كان يدور في مختلف أقطار المشرق أو بين الشخصيات الموجهة للتاريخ هنا وهناك: نذكر من أمثلة ذلك مقارنته بين الفتنة البربرية الواقعة في الأندلس والمفرقة لشمل الجماعة والفتنة الحادثة بالمشرق، هو ينص في سياق ذلك على أنه ائتسى في كتابة تاريخ هذه الفتنة بمستأخرى أصحاب التاريخ بالمشرق مثل أبي محمد الحصني وأبي بكر بن القواس القاضي والفرغاني، ومن هذه المقارنات ما عقده بين تلقيب الحكم المستنصر مولاه غالباً بلقب "ذي السيفين" امثالاً لما فعله الأمير أبو أحمد الموفق بإسحاق بن كنداج الخزري عامله على الجزيرة^(١).

وهكذا نراه يجمع بين المنهج الحولي والموضوعي، كما يمكن القول أنه استفاد من المناهج التي عرفها، ورأى أن يجمع بينها وأن يستفيد منها، فهو يروى كبرى الأحداث السياسية والعسكرية، ويتحدث عن حياة الشعب والحكام وعن الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، ويسرد الحوادث حسب تسلسل السنين، ويترجم لرجال الدولة^(٢) من علماء وقضاة وأدباء في إسهاب. وهذا هو منهجه في "المقتبس" و"أخبار الدولة العامية"، حين يتعلق الأمر بالتاريخ لفترة سابقة له^(٣).

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثاني، ص ١٠٩.

(٢) راجع، المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، حيث نجدة يورد خبر الفيه طالوت ص ١٦٦، خبر غريب الشاعر ١٧٤، والحااج هيثم بن أَصْبَغ، ص ١٩٠، ومحاسن الحااج عبد الكريم بن مُغِيث، ص ١٩١، وذكر وزراء الأمير الحكم وذوى مشورته، ص ١٩٥، وخبر ابن بشير القاضي، ص ٢٠١، وذكر الفرّج بن كنانة، ص ٢١٩، وذكر عباس بن فرناس، ص ٢٣٨، وذكر الغزال الجيّاني، ص ٢٤٣ النخ.

(٣) عبدالله جمال الدين: من نصوص كتاب المتن، مرجع سابق، ص ١٣.

أما عن خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان؛ فكان يذكر المعالم البارزة للعصر ثم يستطرد إلى التفاصيل فلا يدع جزئية دون أن يلم بها، ويطلق على الشخصيات التي يؤرخ لها أحكاماً ناقدة، فيذكر الفضائل كما يذكر النقائص^(١). واتسعت بذلك كتاباته متجاوزة الأمور السياسية والعسكرية إلى مجالات أوسع في الاقتصاد والاجتماع، والعقائد^(٢).

كما كان يستعمل تعبيرات الذم الأخلاقي التي تنبئ على الإدانة لكل من يقف ضدها، ولهذا يكثر من استعمال ألفاظ: الملحد، الفاسق، الخائن، رأس المجرمين، الرابض للفتنة^(٣)... وما أشبه ذلك، ويتلذذ بتصوير انتصار الجماعة مثلاً يرتاح إلى وصف اندحار أعدائها بأسلوب يقوم على المشاركة الانفعالية^(٤).

أما أسلوب الكتابة التاريخية لديه؛ فقد كان أسلوبه يمتاز بالسهولة والوضوح والتعبير الدقيق عن الحقائق، وقوة التدليل والتفسير والتعليل، وامتاز بترابط الفكرة، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة، وتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع المتكلفة، وتدلنا كتاباته التاريخية على أدبه الرفيع وأنه صاحب أسلوب سلس معبر سهل العبارة وبعد عن التزيينات اللفظية^(٥).

وكان يتجنب الإطناب ولا يبتعد عن الحدث الأصلي، مما يجعل المطلع متواصلاً مع الأحداث ".....". كما كان يستخدم صيغ مثل "حكى"^(٦)، بلغني^(٧)، حدثني من رأي^(٨)...، قال لي المحدث....."^(٩) الخ"، وكان يسند المنقول إلى المؤلف مع

(١) لطفى عبد البديع، الإسلام في أسبانيا، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩، ص ٧٠.

(٢) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) المقتبس: (شالميتا)، ص ٢٠.

(٤) احسان عباس: طريقة ابن حَيَّان، مرجع سابق، ص ١١١.

(٥) عبد الرحمن على الحجي: أندلسيات، المجموعة الأولى، بيروت ١٩٦٩ م، ص ٣٦.

(٦) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٩٢.

(٧) راجع: الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج ١، ص ٤١٥، ج ٣، ص ١١٨ نقلاً عن ابن حَيَّان.

(٨) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ٩.

(٩) نفسه، ج ٣، ص ١٠.

إغفال ذكر كتابه، كنحو قوله "حكى الفقيه محمد بن وضاح"^(١)، وقوله "قال أحمد بن محمد الرّازي"^(٢)، و"قال عيسى بن أحمد"^(٣)، الخ. ومع ذلك كان ينسب بعض النقول الى مصادرها كقوله: "قال عيسى بن أحمد الرّازي في كتابه الكبير المعروف "بالموعب"^(٤)، ونجده في مرات نادرة نسب المنقول الى مبهم كقوله: "وقرأت في بعض التواريخ"^(٥)، "وسمعت من يحكي عنه أنه....."^(٦)، "قل"^(٧)، "وزعموا"^(٨)، "وقد ذكروا"^(٩)، "وقال بعض الرواة"^(١٠)، وكان يشير الى بداية نقوله بألفاظ منها: "حكى"^(١١)، "قال"^(١٢)، "وقرأت في كتاب"^(١٣)، "قل"^(١٤)، "وقد ذكروا"^(١٥)، "وقال بعض الرواة"^(١٦)، "وقرأت بخط"^(١٧).

كما كان يغلب عليه الاستئناس بالتعبير القرآني "من ذلك قوله: "وأصبحنا من استشعار ذلك والتهادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة"^(١٨)، "وحمي الوطيس بينهم إلى أن نصر أوليائه، وزلزل أعداءه، وولوا الأدبار"^(١٩)

-
- (١) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٩٢.
 - (٢) نفسه، ص ٩٣.
 - (٣) نفسه، ص ٩٩.
 - (٤) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٣٢٩.
 - (٥) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٥٥.
 - (٦) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٦٩.
 - (٧) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٩٥.
 - (٨) نفسه، ص ١٠٠.
 - (٩) نفسه، ص ١٠٠.
 - (١٠) نفسه، ص ١٩٠، ٢١٣.
 - (١١) نفسه، ص ٩٢.
 - (١٢) نفسه، ص ٩٣.
 - (١٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٤٣، ٢٥٣.
 - (١٤) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٩٥.
 - (١٥) نفسه، ص ١٠٠.
 - (١٦) نفسه، ص ١٩٠، ٢١٣.
 - (١٧) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثاني)، ص ٩٤.
 - (١٨) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١٢١ - ١٢٢.
 - (١٩) نفسه، ج ٣، ص ١٢٣.

"....ولا قبضوا منها مرتزقا، ولا نالوا منها مرتفقا" ^(١)، ويقول في وصف حَبُوسٍ:
"شديد الغضب، غليظ العقاب" ^(٢). ويقول " واعتدت قاعاً صفصفاً كأن لم تغن
بالأمس" ^(٣)

وكان يميل إلى استعمال التمثيل والصور الشعرية " فمثل دهرنا هذا فرس بهيم
الشية" ^(٤).... وقوله: " شاء من الناس هامل" ^(٥)، يعللون نفوسهم بالباطل" ^(٦).
مستعار من قول المنصور النُّوري:

شاء من الناس رائع هامل..... يعللون النفوس بالباطل

ويستشهد أحياناً بأبيات من الشعر ففي عهد الحكم الرِّبضي حدثت مجاعة
شديدة، أحسن فيها الأمير الحكم مواساة أهل الحاجة من الناس، فأفشى الصدقات
الواسعة، وفرق الأموال وذكر فضل الأمير الحكم فيها، عباس بن ناصح الجزري،
فقال في شعر له:

نكد الزمان فأمنت أيامه.....من أن يكون بعصره عُسر

طلع الزمان بأزمة فجلا.....تلك الكريمة جوده الغمر" ^(٧)

وهذا الاهتمام بديهي نتيجة تتلمذه على يد صاعد البغدادي وابن أبي الحباب
حامل علم أبي على القالي، الخ" ^(٨).

وكان يميل إلى الركون إلى السجع إن جاء في سياق الكلام " فسفسف أخلاقهم،
واجتث أعراقهم، وسفه أحلامهم" ^(٩)، " وأركستهم" ^(١٠) الذنوب، ووصمتهم

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٠.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٢٨٧.

(٣) المقتبس (شاليتا)، ص ٢٣٢.

(٤) نفسه، ج ٣، ص ١٢٢.

(٥) الهامل: التكاثر.

(٦) نفسه، ج ٣، ص ١٢٢.

(٧) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٨) الشكعة: المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٣٥٢.

(٩) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١٢٢.

(١٠) أركس: نكب.

العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأنقياء، ولا على معاني الغي بأقوياء، شاء من الناس هامل، يعللون نفوسهم بالباطل، من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشانهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم^(١).

وقد يلجأ في أسلوبه الى الإغراب: فيستعمل عبارات غريبة مثل: " وابدع أصحابه عباديد "^(٢) و " أمراء الثغر النازلين في ضبنة "^(٣)، وكان يستخدم كلمة " اسحنفر " للتهكم والسخرية ممن يعتسف في القول أو في القاء الشعر فوصف بعض من جاء عزاء ابنة المعتضد بأنهم " اسحنفروا في تعزيتة "^(٤)؛ بل نراه في الهجاء والنقد يحنح الى شئ من الإغراب والعمق وهذا متوقعا حيث يحتاج الموقف الى شدة وصرامة وعبارات قوية مؤثرة^(٥) فيقول في أحد انتقاداته " وكان حجة الله في القسم، ومحتته لذوي الفهم، إذ كان من الأمية والعامية وخمول الأصل، ونذالة الفرع، ولؤم الأطراف، ودخلة الأعراق، على ثبج عظيم، وبمكان مقعد مقيم، وعفو الله لا يبعد عمن جاءه بقلب سليم^(٦). ويقول أيضاً: " وانكدر بإثر وفاته ابن باشة المعروف بالأصغر، هدام القصور، ومبور المعمر؛ وكان من التبجح في اللؤم، والالتحاف للشؤم، مع دناءة الأصل والفرع، وتنكب السداد، وتقليل الفساد، على ثبج عظيم. بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحطت أعلامهم المنيعة^(٧).

ويتسم أسلوبه بصفة الاتزان والتوسط على أن سمة الوضوح والسهولة مع التوسط والاتزان تبدو في أغراض المديح والتهنئة أوضح منها في جانب الهجاء

(١) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١٢٢.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٤١٠.

(٣) نفسه، ج ٣، ص ٦٩، وضبنة أى ناحيته وكنفه.

(٤) الحلة السرياء، ج ٢، ص ٥٢.

(٥) حازم عبد الله خضر: أبو مروان ابن حيان، أدبيا وكاتباً، مجلة المناهل، عدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ م، ص ٢١٠.

(٦) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج ١، ص ٣٧٢، نقلا عن ابن حيان.

(٧) نفسه، ج ١، ص ٣٧٢، نقلا عن ابن حيان.

يقول في رسالة له إلى أحد العمال بعد خلاص الأخير من نكبة قائلاً: "فأنت أعلم بمجاري الأمور، ومصاير الدهور، وأهذى إلى التسليم لمقدور، فلم تورد الأيام عليك من حوادثها المجهول النكر، ولا وردت عليك بالفتكة البكر، ولا هاضت منك بما جنته، ولا هدت من ركنك بما أتته، بل صادفت منك الإبريز الذي لا يزيده السبك إلا تخليصاً، والمبرز الذي لا يعقبه حؤول الأحوال نكوصاً؛ تتلقى الخطوب بصدر وساع، وصبر منفسح الباع؛ وتسبر الدهر بمسبار، وتعرف من مكنونه حقيقة إirاده وإصداره" ^(١).

ويتسم أسلوبه أيضاً بالتنوع فكان يحرص على أن ينوع في أساليبه وطرق تعبيره مستفيداً من ثروته اللغوية الواسعة، واطلاعه العميق على أسرار اللغة واستيعابه لفنونها وعلومها على عكس ذلك نجد في نقده حيث تكثر الجمل القصيرة ذات المعاني الموجزة يقول: "وكان فلان غليظ الطبع، خشن الجانب، وخيم الخيم، فدماص جهم اللقاء، يعتره ضجر يخل به، قلما ينجو الخصم منه من بادرة، له في ذلك أخبار شائعة. وكان فيما زاد من علته خطأ الطبيب لإصابة المقدار، فبان عليه أثر خطأ العلاج" ^(٢).

وكان يقف عند جانب النقص في المتهكم عليه، وقد يكون شخصاً أو أسلوباً أو سلوكاً أو فكرة أو غيرها، فيلجأ إلى إبراز العيب بصورة فنية أو بمجموعة من الصور، بحيث يلفت النظر إليه ويميزه عن بقية الملامح والسمات مستعيناً في ذلك ببراعته في التصوير، وحسن توظيفه للصورة التي هي "طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير. ولا يقف التصوير الساخر عند حدود نقل النقائص والهناك كما هي في الحياة الواقعية، وإنما يتعدى ذلك إلى رصدها ونعتها بأوصاف باعثة على التفكير والتدبر، وتعمل على التنبيه للعيب، وذلك لتجاوزه وتغييره أو الإقلاع عنه.

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٦٣.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٦٦.

ولم يكن همه سرد الوقائع والحوادث فقط وإنما كان إلى جانب ذلك يدلي بالرأي الصحيح ويعلق على الحادثة ويعلل الظاهرة بل نجده أحياناً كثيرة يمعن في إيراد بعض التفاصيل لحادثة ما قد لا تحتاج إلى تلك العناية والتفصيل في نظر البعض، غير أننا نستشف من خلال ذلك أنه يعرض علينا مادة القضية بتمامها أي بأسبابها ونتائجها^(١).

وقد تجنب الإفراط في السجع، فجاءت عباراته منسجمة مع الوقائع التي تحدث عنها، وهو ما يدل على تمكنه الأدبي البالغ. وامتلاكه لخاصية اللغة، وقد وُفق تماماً في ربط معظم الروايات التي أخذها عن المؤرخين المتقدمين، فجعل منها نسيجاً منسجماً، مميزاً، حافظ فيه على أساليبهم المختلفة في الوقت الذي طبع فيه هذا النسيج بطابعه الخاص.

وكان يلتزم الأسلوب السليم، نتيجة لثروته اللغوية وحصيلته الأدبية^(٢)، وكان يعتمد على نفسه في صياغة العبارة وبناءها، وترتيبها على نحو متميز^(٣)؛ مثال ذلك ما كتبه إلى الوزير أبا القاسم بن عبد الغفور هذه الرسالة البليغة: "ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستملاة من الصدور، المستعارة من النظر، من أنفس مؤلفيها، وقلوب مصنفيها، فأبثك شأن الاهتمام بها، وناولتك يوم التقينا السفير الحقيق، ختام تاريخي المهجور، سائلاً علاك تصفحه كيما تكذب ما زور فيه علي، ولا محالة أن قد فعلت، ورددت وجهدت، واستأخر صرفه إلى، فحملت ذلك على نسيانك، لتقسم الأشغال لحاظرك، ولماخ القلق بي، ويومان من هجر الحبيب كثير، ونفسي متطلعة إلى حضوره حذراً من أن يعدوك، فلا أستقبل فيه الحيرة، فتفضل بصرفه، غانماً حمدي إن شاء الله"^(٤).

(١) عبد السلام الهراس: مأساة الأندلس في رأى ابن حَيَّان، عدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ م، ص ٤٤٤.

(٢) الشكعة: نفسه: ص ٣٦٩.

(٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب (عصر سيادة قُرْطُبة). دار الشروق، عمان - الأردن، ١٩٨٧ م، ص ٣٠١.

(٤) الذخيرة: (تحقيق البديري) ج ١، ص ٣٦٤.

ويورد ابن عبد الملك نص عيسى الرّازي حول الموضوع، ثم أضاف إليه تعليقاً مفصلاً لابن حيّان، نقله عن خط ابن بَشْكُوَال ممهداً لهذا التعليق بقوله:

"وقد ذكر التاريخي الحافظ ابن حيّان، في كتاب "المقتبس" نمقه بحسن عبارته المعهود من كلام الرّازي في ذكره، نقلته من خط الراوية أبي القاسم ابن بَشْكُوَال وهو....." (١).

خلاصة الأمر أن ابن حيّان مزج بين المنهجين الحولي والموضوعي في عرضه وترتيبه المادة العلمية في كتبه، واهتم بالاسناد لكنه اهتم بذكر الراوي الأخير فقط كما اهتم بذكر أسانيد الكتب التي اعتمد عليها كما اتضح ذلك في فصل المرجعية.

(١) عبد الواحد المراكشي: الذيل والتكملة، تحقيق: محمد بن شريفة، ج١، ص ١٥٨.